Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقطعاً، وفيما يقارب نصف الكتاب الذي عدّه عبد الواحد لؤلؤة رواية واقعية كتبها شاعر رسام، كما عدّه صورة جبرا في شبابه، فهل يذكرنا ذلك بـ (صورة الفنان في شبابه)، لجميس جويس؟ وكيف يغدو سؤال السيرة والرواية حين نتابع وصف عبد الواحد لؤلؤة لرواية (صيادون في شارع ضيق) بالرواية الذاتية جداً، ومثلها (صراخ في ليل طويل) التي شبه الخيال فيها بالملح في الطعام؟

على وقع هذه الأسئلة يرسم جبرا إبراهيم جبرا نفسه أشبه بشخصية روائية، ويكتب الواقعة كقصة، ويشتغل التناص في السيرة، وتتهجّن لغتها وتتعدد كما يليق بالرواية، فيتلوّن الحوار بالعامية، ويومض شعر جبرا في النص السيري، كما تومض المعلومة والوثيقة.

وأول مايلفت من ذلك هو توسّل المجاز في التعبير عن الحب والجنس. فمنذ بداية وصول الكاتب إلى جامعة اكسترا، وطوال الأشهر التسعة بين 1939–1940، وقبل أن يكمل العشرين، تغدو الجامعة "مسرحاً لانطلاقاتي الذهنية والحسية"، فيقبل على شراء الكتب وتعلم الرقص، ويقرأ للفتيات شعراً، وهو الفتى العربي القادم من روابي القدس البعيدة"، ما زلت أحمل بين جنبيّ عطش الصحراء القديم".

في مقهى دوليز، ومع ابنة الستة عشر ربيعاً تكون البداية. وسيرى الكاتب في هذه الفتاة بطلة قصة (ابنة السماء) التي كتبها في القدس قبل سفره بسنة، وسيكتب واصلاً أمس القدس بيوم اكسترا:"وكان لي في اكسترا أن أعرف الحب من جديد بعد تجربة عرفتها في القدس، بقيت رغم لذائذها ولياليها المؤرقة، في نطاق الهوى العذري. أما هذه المرة فكان الحب عاصفاً كالريح، وجارفاً كالسيول، فضاؤه الحقول الخضراء والأشجار البواسق، يضجّ بالجسد كما يضجّ بالروح".

وسرعان ماتلي علاقة الكاتب بغلاديس نوبي التي تصغره بسنة، وتدرس الإغريقية واللاتينية، وتعزف الموسيقى الكلاسيكية وتحفظ الشعر الإنكليزي. وفي هذه العلاقة التي تؤججها الثقافة تأتي شخصية ستيف دنكرلي الذي يحب غلاديس ويريد الزواج منها، ويكتب إلى جبرا طالباً التنحي، ثم تبلغ به التضحية أن يحمل غلاديس على الدراجة إلى جبرا الذي يكتب"، وماحدث في بقية ذلك النهار والليلة التي أعقبته، لايمكن أن يُروى بسهولة، فقد كان كالحلم: بعضه رعب، ومعظمه لذة، وكله أشبه بالمستحيل". وسيبلغ التعبير المجازي عن العلاقة أقصاه حين يشبه جبرا شفتي غلاديس بفلقتي فاكهة باردة ندية "تذوبان ولا تذوبان على شفتي".